إزالة السُّتور بتسليط النُّور على تاريخ الكعبة المشرَّفة عَبْر العصور

2024-05-31

الحمد لله الذي هيَّأ لأصحاب السعادة أسباب التوفيق، ويسَّر لمن شاء من عباده حجّ بيته العتيق، وجعل أفئدةً من الناس تهوي إليه من الأحرار والرقيق، فيأتونه ((رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ))، فسبحانه من إله جعل البيت العتيق مثابة للناس وأمْنًا، وأكرمه بإضافته إلى نفسه تشريفا وتخصيصا ومَنًّا. جعل حجّه والطواف به حِجابا للعبد من العذاب وحِرزًا وحصنًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. شرّف مكة البلد الحرام. وجعل فيها الكعبة والمشاعر العظام، وخصّها بحرمة إلى يوم القيام، ونسأله سبحانه أن يرزقنا الأدب في حَرَمه. ويوفّقنا لامتثال أوامره واجتناب محارمه، اللهم آمين. وأشهد أنّ سيّدنا محمدا عبده ورسوله. وصفيّه من خلقه وخليله.

شهِدتْ جميعُ الأنبياء بفضله * ولأجل خَتْمِهِمُ أَتَوْا مِنْ قَبْلِهِ

وله لِواء الْحَمد خُصّ بِحَمْله * هذا الفَخَارُ فهل سمِعتَ بمثله

وَاهًا لنشأته الكريمة وَاهَا

فشهِدتُ أنّ الله خَصَّ مُحمّدا * فَغَدَا بأملاك السماء مُؤَيَّدًا

وعلى لسان الأنبياء مُمَجَّدًا * ورأيتُ فَضْلَ العالَمين مُحَدَّدًا

وفضائلُ المختار لا تتناهَى

يا أمّة الهادي ومَنْ كَمِثَالِكُمْ * فجلالُ أحْمدَ شاهدٌ بجمالِكُمْ

هو سُتْرَتُكُمْ هو ذُخْرُكُمْ وَمَلِيكُكُمْ * صلّوا عليه وسلّموا فبذلكُمْ

تُهْدَى النفوسُ لرُشْدِها وغِناهَا

اللهم صلِّ وسلِّم وبارِك على سيِّدِنا محمّد. النبيّ الطاهر الأبرّ. وعلى آله ذوي العزّ الشامخ والنسب الأفخر. وعلى صحابته المخصوصين بالإيمان الكامل والسرّ الأبهر. صلاة تتحفنا بها برضوانك الأكبر. ونكون بها ممّن حجّ البيت وقبّل الحجر. ووقف بعرفة وحلق ونحر. وختم حجّه بزيارة سيّد البشر. صلى الله عليه وسلم. وجال في مدينته الطيّبة ومتّع فيها النظر. ونال بالتبّرك بآثاره الشريفة غاية الوطر. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. للبشر على اختلاف أجناسهم وأديانهم شعائر يعظِّمونها، ومعتقدات يوقنون بها، وأزمنة ينتظرونها، وأماكن يقدِّسونها. وشُرِّفت أمّة الإسلام عن سائر الأُمم بأنها أمّة عَظَّمت ما يَستحقّ التعظيم، وقَدَّست ما هو جدير بالتقديس، وهُديَت للمعتقَد الصحيح، وجانبت ما سوى ذلك من الباطل؛ فكانت أمّة معصومة من الإجتماع على الجهل أو الهوى. والكعبة المشرَّفة أشرف بناء في قلب المسلم، وبقعتها أقدس البقاع عنده؛ فإليها يهوي فؤاده، وإليها تحنّ نفسه، وبمشاهدتها تتحرّك مشاعره، ويرقّ قلبه، وتفيض مدامعه. فإذا ذُكِرت الكعبة المشرَّفة عند المسلم إهتزّ القلب بالتعظيم، وتحرّك بالحنين، وإذا شاهدها صَغُرت الدنيا في نفسه، وزهدت عينه في كل منظر سوى الكعبة. كم من دعوات رُفِعت حولها، وكم من عَبَرات سُكِبت أمامها. وكم من قلوب تقطّعت تريد بلوغها والتعبّد عندها. يُرْخِص المؤمن كل شيء من الدنيا ليصل إليها. أيّها المسلمون. الكعبة. وما أدراك ما الكعبة المعظَّمة؟ هي ذلكم البناء القديم، والبيت العتيق. أوّل بيت وُضع للناس، وأوّل بناء للعبادة بُني على الأرض، يقول الله تعالى في سورة آل عمران: ((إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ فِيهِ ءايَـٰتٌ بَيّـِنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءامِناً وَللَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَـٰعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ)). رَفع سيّدنا إبراهيم الخليل وابنه سيّدنا أسماعيل عليهما السلام بُنيانه، ووضعه على أساس كان موجوداً قبله، يقول الله جل وعلا في سورة الحج: ((وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ

مَكَانَ الْبَيْتِ)). إبتناه الشيخ الكبير وابنه الشاب حتى أتمّاه وأحكماه. يقول جل وعلا في سورة البقرة: ((وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ)). فتتابعت أجيال على التعبّد فيه، وطافت به أُمم تِلْوَ أُمم. لا يُعلم في الأرض بناء طيف به قدر ما طيف بالكعبة المشرَّفة، ولا تُعُبِّد عنده كما تُعُبِّد عندها، ولا يَحصي ذلك إلا الله تعالى. ولأهل الباطل أصنام وأوثان ومقدَّسات يطوفون بها، ويَتعبّدون لها أو حولها. لكن الكعبة انفردت بأنّ التّعبّد فيها تعبّد بحق، والطواف حولها طواف بحق، واستقبالها استقبال بحق، يقول تعالى في سورة البقرة: ((وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)). أيّها المسلمون. كما امتازت الكعبة المشرَّفة بأنها تَضرب في عُمْق التاريخ البشري. لم يتغيّر مكانها، ولم يطمر تاريخها، ولم يتّخذ المؤمنون بناء غيرها، ولم يختلفوا عليها، ولم يملّوا من التوجّه إليها، وكل مؤامرات هَدْمها أو صَرْف الناس عنها باءت بالفشل الذريع؛ فالكعبة هي الكعبة منذ زمن الخليل إبراهيم إلى يومنا هذا، وإلى أن ينزل المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام فيطوف بها آخر الزمان. كما صح ذلك الخبر عن رسول الله. صلى الله عليه وسلم. ذَكر أهل التواريخ أنها انهدمت مرة فبناها العمالقة، (وهم قبائل بدوية كانت تسكن الجزيرة العربية)، وانهدمت أخرى فبنتها قبيلة جُرْهُم، وكانت العرب تعظِّمها وتكسُوها؛ كما أخبرت أُمّ المؤمنين السيّدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. ففي صحيح البخاري عنها فقَالَتْ: ((كَانُوا يَصُومُونَ عَاشُورَاءَ قَبْلَ أَنْ يُفْرَضَ رَمَضَانُ، وَكَانَ يَوْماً تُسْتَرُ فِيهِ الكَعْبَةُ)). وأشهر ما نُقل في ذلك أنها احتُرقت أو هدّمها السَّيْل والنبي صلى الله عليه وسلم في ريعان شبابه قبل أن يُبعث بالنبوّة، فوهت أركانها، فهدّمتها قريش بعد تردّد خوفاً من العذاب، وأعادت بناءها، حَتَّى إِذَا بنوها وبلَغُوا مَوْضِعَ الرُّكْنِ اخْتَصَمَتْ قُرَيْشٌ فِي الرُّكْنِ، أَيُّ الْقَبَائِلِ تَلِي رَفْعَهُ؟ حَتَّى كَادَ أن يقع بينهم شجار، فَقَالُوا: تَعَالَوْا نُحَكِّمْ أَوَّلَ مَنْ يَطْلُعُ عَلَيْنَا مِنْ هَذِهِ السِّكَّةِ، فَاصْطَلَحُوا عَلَى

ذَلِكَ، فَطَلَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ غُلَامٌ عَلَيْهِ كساء مخطَّط، فَحَكَّمُوهُ، فَأَمَرَ بِالرُّكْنِ فَوُضِعَ فِي ثَوْبٍ، ثُمَّ أَمَرَ سَيِّدَ كُلِّ قَبِيلَةٍ فَأَعْطَاهُ نَاحِيَةَ الثَّوْبِ، ثُمَّ ارْتَقَى هُوَ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَرْفَعُوهُ إِلَيْهِ، فَرَفَعُوا إِلَيْهِ الرُّكْنَ فَكَانَ هُوَ يَضَعُهُ بيده الشريفة. أيّها المسلمون. وقبل هذه الحادثة بخمس وثلاثين سنة ابتنى أبرهة الحبشي النصراني كنيسة وزيّنها وأحكمها، أراد أن يُحوِّل الناس إليها بدل الكعبة، وأمر العرب بقصدها في الحج، فلم يحجوا إليها، بل أحدث بعضهم فيها؛ لأنهم رأوا أنّ الكعبة بيت الله المعظَّم، قد توارثوا تعظيمه منذ زمن الخليل إبراهيم عليه السلام، فعَظُم في نفوسهم أن تزاحَم الكعبة بغيرها، فسيّر أبرهة جيشاً عظيماً لهدمها. جبُنت قريش عن مواجهته. ففرّت في الجبال، فانتصر الله تعالى لبيته، وأهلك أبرهة وجنده، وجاء خبر ذلك في سورة الفيل. قال جل وعلا: ((أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مّن سِجّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مّأْكُولِ)). وسار تُبَّع اليماني إلى الكعبة يريد هدْمها. فهاجت عليه ريح ردّته عنها. حتى ثاب إلى رشده، وتاب عن قصْده. أيّها المسلمون. لقد حفظها الله تعالى بيتاً لعبادته، وقِبلة لصلاته، ومقصداً لنُسُكه. قال تعالى في سورة المائدة: ((جَعَلَ اللهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ)). وفي أوّل الإسلام كان المسلمون يتوجّهون في صلاتهم لبيت المقدس. حتى نزل قول الله تعالى في سورة البقرة: ((فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ)). فكانت الكعبة قِبلة المسلمين إلى يومنا هذا، وإلى ما شاء الله تعالى. فزادها ذلك تعظيماً وتشريفاً حين صيّرها الله عز وجل قِبلة للمسلمين، فيتوجّهون إليها من كل أقطار الأرض. فهي تُستقبَل في كل صلاة سواء كانت فرضاً أم كانت نفلاً، وسواء صُلِّيَت جماعة أم فرادى. وبُنيت مساجد المسلمين في كل الأرض على اتّجاه واحد هو اتّجاه الكعبة، ومَن يُصلي في البنيان أو في العراء يَستقبلها، أيّها المسلمون. وأهمّ سؤال يشغل المسلم إذا سافر إلى أيّ بلد من بلدان العالم سؤاله عن اتّجاه الكعبة، فكانت الكعبة حاضرة

بشكل مكثَّف في حياة المؤمن. والذبيحة تُوَجَّه للكعبة تقرَّباً إلى الله تعالى بذبْحها، والميّت يوضع في قبره فيوجَّه للكعبة، وقد جاء في الحديث أنها قِبلة المسلمين أحياء وأمواتاً، والداعي يستقبلها في دعائه، وفضِّلت الصلاة في المسجد الذي حوى الكعبة بمئة ألف صلاة عمّا سواه من المساجد، ويُنسب المسجد إليها فيقال مسجد الكعبة، كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن مسجده في المدينة المنوّرة: ((صَلَاةٌ فِيهِ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَسَاجِدِ، إِلَّا مَسْجِدَ الْكَعْبَةِ)). ومن تشريف الله تعالى لها أنها لا تُستقبل في قضاء الحاجة مهما كان الإنسان بعيداً عنها، كما في الحديث الصحيح المتّفق عليه. عن أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ، رضي الله عنه. أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((إذا أتَيتُمُ الغائِطَ فلا تَستَقبِلوا القِبلةَ بغائِطٍ ولا بَولٍ، ولكنْ شَرِّقوا أو غَرِّبوا)). وما دامت هذه الأمّة تعظّمها فهي على خير، ولا يزول الخير عنها إلا بزوال تعظيم الكعبة من قلوبهم؛ كما قال صلى الله عليه وسلم. أخرج ابن ماجه وابن أبي شيبة وأحمد والبيهقي وغيرهم عن عياش بن أبي ربيعة المخزومي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ لَا تَزَالُ بِخَيْرٍ مَا عَظَّمُوا هَذِهِ الْحُرْمَةَ يَعْنِي الْكَعْبَةَ حَقَّ تَعْظِيمِهَا فَإِذا ضيّعوا ذَلِك هَلَكُوا)). وكان النبي صلى الله عليه وسلم يغرس تعظيم الكعبة، واحترام حرمتها، والحفاظ على قدسيّتها في قلوب أصحابه؛ ففي فتْح مكة اشتدّ فرح الصحابة رضي الله عنهم بذلك الفتح العظيم في ذلك اليوم، فقال صلى الله عليه وسلم: ((هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللَّهُ فِيهِ الكَعْبَةَ، وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الكَعْبَةُ)). أيها المسلمون. ما فُضّلت الكعبة المشرَّفة لجمال جدرانها، أو غلاء بابها وميزابها، أو فخامة كسوتها، فكل ذلك يوجد ما هو أفخم منه وأجمل وأغلى ثمناً، وإنما فُضِّلت الكعبة لموضعها، فقد جعله الله تعالى مباركاً، وفضّله على غيره من البقاع، وشرع فيه عبادة تخصّه كالطواف به، وتقبيل الحجر الأسود؛ ولذا قال الفقهاء: (لَوْ زَالَتْ الْكَعْبَةُ وَالْعِيَاذُ بِاَللَّهِ صَحَّتْ الصَّلَاةُ إلَى مَوْضِعِ جِدَارِهَا). والظاهر من الأحاديث أنّ الكعبة شرّفها الله تبقى إلى آخِر الزمان، ويردّ

الله تعالى عنها عدوان المعتدين، ويردّهم على أعقابهم خاسرين، كما صح عنه صلى الله عليه وسلم في صحيح البخاري عن السيّدة عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يَغْزُو جَيْشٌ الكَعْبَةَ، فإذا كانُوا ببَيْداءَ مِنَ الأرْضِ، يُخْسَفُ بأَوَّلِهِمْ وآخِرِهِمْ. قالَتْ: قُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، كيفَ يُخْسَفُ بأَوَّلِهِمْ وآخِرِهِمْ وفيهم أسْواقُهُمْ ومَن ليسَ منهمْ؟ قالَ: يُخْسَفُ بأَوَّلِهِمْ وآخِرِهِمْ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ علَى نِيَّاتِهِمْ)). ويطوف بها المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام بعد نزوله وقتله الدجّال كما قال صلى الله عليه وسلم. ففي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، رضي الله عنهما. قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي أَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ آدَمُ، سَبِطُ الشَّعْرِ، بَيْنَ رَجُلَيْنِ يَنْطِفُ رَأْسُهُ مَاءً - أَوْ يُهَرَاقُ رَأْسُهُ مَاءً - قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا ابْنُ مَرْيَمَ)). فإذا انتهى زمن المسيح عليه السلام، وقبضه الله تعالى إليه، وفسد الناس. وذهب الإيمان. هدم الأحباش الكعبة، فقد أخبر صلى الله عليه وسلم عن بعض أمور الغيب، وعمّا سيقع من فتن قبل قُرب قيام الساعة، وهو من علامات نبوّته. بأنّ الحبشة سيهدمون الكعبة. ويقلعونها حجراً حجراً. ويسلبوا حِليتها ويجردّوها من كسوتها. أيها المسلمون. هذه هي الكعبة المشرَّفة التي ابتناها الخليل عليه السلام، وتعبّد فيها وإليها عبْر القرون خَلْق لا يحصيهم إلا الله تعالى، يهدمها في آخر الزمان قوم من الحبشة! بناها إبراهيم الخليل عليه السلام، وبُعث فيها رسول الله سيّدنا محمد. صلى الله عليه وسلم. وهما خير البشرية، ويهدمها شرار من أشرار الناس عند فسادهم، وذهاب أهل الإيمان. وبين البناء والهدم تاريخ للكعبة حافل بالأحداث، مليء بسِيَر الرسل والصحابة. والعلماء والدعاة. الطائفين والعاكفين في ساحات الكعبة، وأخبار العبّاد والصالحين. والركّع السجود المجاورين عندها. هذه قِبلتكم يا أمّة سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم. لتفاخروا بها وتحافظوا عليها، وتتوجّهوا إليها بقلوبكم كما توجّهت إليها أجسادكم في صلواتكم، فحقّقوا العبودية في أعلى

درجاتها، وأسمى معانيها، وأَرُوا الله تعالى من أنفسكم خيراً. اللَّهُمَّ زِدْ هَذَا البَيْتَ تَشْرِيفاً وَتَعْظِيماً. وَتَكْرِيماً وَمَهَابَةً وبِرّاً، وَزِدْ مَن شَرَّفَهُ وكَرّمَهُ مِمَّنْ حَجَّه أو اعْتَمَرَه تَشْرِيفاً، وَتَكْرِيماً، وَتَعْظِيماً، وَبِرّاً. ووفِّق حجّاج بيتك الحرام لأداء مناسكهم بأمْن وأمان، ويُسر وسهولة واطمئنان، واجعل حَجّهم مبروراً. وسعيهم مشكوراً. وذنبهم مغفوراً، ورُدّهم إلى ديارهم سالمين غانمين، وبارك في جهود العاملين في خدمة الحجّاج، واجزهم عمّا يقومون به خير الجزاء، إنك أنت الجواد الكريم. اللهم ارزقنا حُسن الأدب مع بيتك الحرام، واغرس في قلوبنا محبّته وتعظيمه، ومعرفة قدره ومكانته، واجعلنا ممن يتشرّف بحجّه وزيارته. بجاه حبيبك سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم. ذي الخُلُق العظيم. والقلب الرحيم. فإنّك يا مولانا جواد كريم. رؤوف رحيم. متفضّل منعم عطوف ودود. واسع الكرم والجود. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ